ظـواهـــر فنـــــية

في لغة الشعر العربـي الحديث

تأليـف

علاء الدين رمضان

ظواهر فنية في لغة الشعر العربـي الحديث ، علاء الـــدين رمضان السيد ؛ **الطبعة الأولى** : دمشـــق ؛ اتحـــاد الكتـــاب العرب،١٩٩٦م – ١٦٤ص /٣٠سم * رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق: ٨١١،٩٠٠٩س.ي.د./ظـــواهر* ع / ١٥٧١، ١٠، ١٩٩٦م * **الطبعة الثانية** : طهطا ؛ نـــادي الأدب بقصر ثقافة طهطا ، الهيئة العامـــة لقصـــور الثقافـــة ، ٢٠٠٠م، ١٥٠ص / ٢٠×١٥ سم * رقم الإيـــداع في دار الكتب المصرية ٢٠٠٠/٥٠١٨م.

مقدمة الطبعة الثانية

النقد كالإبداع ؛ ملكة فردية تحصل في النفس بطول ممارسة الآثار الأدبية ويدعمها ذوق سليم وبصر ثاقب وثقافة واسعة ؛ ومادة نقد باب فسيح في المعاجم العربية ، تنوع استخدامها وتشعبت معانيها ، حتى قرنت في مفهوم الخاصة والعامة بتمييز جيد الشعر من رديئه ، وكان ذلك مع استقرار الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، إذ تأثر في منهجه بالعقلية الجديدة التي ثقفت فلسفة اليونان وفارس وروحانية الشرق " فتغير النقد من ذوقي غير مسبب يقف عند الجزئيات ويقفز إلى تعميمات خاطئة تجعل من شاعر أشعر الناس لبيت قاله ، إلى نقد منهجي مسبب يحاول أن يقصر أحكامه على الجزئية التي ينظر فيها ، وإذا تخطاها إلى التعميم لجأ إلى الاستقصاء واحتاط في الحكم"[1] ؛ وقد تخطى النقد تلك المرحلة إلى مرحلة أكثر اتساعاً هي مرحلة التنظير وصوغ النظرات النقدية ثم تطوير ما صاغه إلى نظريات ذات قيمة فكرية ونقدية كما هو الحال عند الإمام عبد القاهر في نظريته في النظم .

وأظن أن أول من فجر قضية الحاجة إلى دعم النقد الذوقي بتبرير قولي مقنع يعتمد على قاعدة لغوية أو معنوية ، أو يعتمد على شبه قاعدة منهما يؤكدها منطق سليم ونظرة جمالية ، هو هذا التيار المفاضل بين القديم الذي يتجه أنصاره صوب الجاهلية وصدر الإسلام ، والحديث الذي يقف مؤازروه مع ما يجري حولهم من مقتضيات الحياة المتجددة والثقافة التي دخلتها الفلسفة والنظرات المنطقية والعلوم العقلية ، وظلت دوامات من النقد تتجاذب حلقاتها الأدب العربي في هذه القرون بعضها قريب وبعضها بعيد ، لكنها جميعاً في النهاية تظل متلاطمة الأمواج ؛ فاللغويون يحاسبون الشعراء بمنطوق علمي خالص يزدريه الشعراء ويسخرون منه كما فعل الفرزدق بابن أبي إسحق الحضرمي عندما أراد الحضرمي أن يستثيره ، فسأله أمام الناس : يا أبا فراس ، كيف تنشد هذا البيت :

---

1 ــ د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، ص:١١ ، دار نهضة مصر للطباعة ، القاهرة د.ت..

وعينان قال الله كونا فكانتا * فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقال الفرزدق : كذا أنشد ؛ فقال ابن أبي إسحق : ما كان عليك لو قلت فعولين ؟ ، فقال الفرزدق : لو شئت أن تسبح لسبحت ؛ ونهض ؛ فلم يعرف أحد ما أراد بقوله ، قال ابن جني : أي لو نصب لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك ، وإنما أراد : أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر ، وقال أبو الفتح : كان هنا تامة غير محتاجة إلى الخبر ، فكأنه قال : وعينان قال الله : أُحدُثا فحدثتا ؛ أو اخرجا إلى الوجود فخرجتا[٢] ؛ وهنا أراد الفرزدق بفطنة الشاعر وذوقه أن نصب فعولين يجعل من الأسلوب وعظاً تقريرياً لا يوحي بشيء مما أراد من ظلال اللغة ؛ وإنما الجمال في الرفع فكأنه يستعرض دور العينين وقوة فتكهما بالمغرمين وكأنه استأنف هنا جملة جديدة فيها فعولان خبر لمبتدأ محذوف تقديره عينان فعولان ؛ ومن هنا يتضح ما لمعاني النحو من أهمية في بناء النص .

وقد انتشرت مثل هذه النظرة الواعية بين المشتغلين بالنقد من اللغويين أو الأدباء ففرق الشعراء بين ذي الذوق السليم وبين العالم الذي يطبق القاعدة مهما كانت جافة، وقد روى الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز أن بعضهم قال : رآني البحتري ومعي دفتر شعر ، فقال ما هذا ؟ ، فقلت شعر الشنفرى ، فقال : وإلى أين تمضي به ؟ فقلت : إلى أبي العباس ، أقرأُه عليه ، فقال : قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة ، فما رأيته ناقداً للشعر ، ولا مميزاً للألفاظ ، ورأيته يستجيد شيئاً وينشده ، وما هو بأفضل الشعر ، فقلت له : أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ، ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه[٣] .

فكان لكل من البلغاء والنحويين والأدباء وفلاسفة المتكلمين دور لا ينكر في النقد العربي ، كلهم يحاول أن يرسي قواعده وقوانينه التي يتناول من وجهتها الشعر العربي درساً ونقداً ، بل تقديراً وذوقاً كذلك ، واعتمدوا على أسس علومهم ، فتجاذبتهم اللغة وما احتضنته من مضمون حتى حسم الإمام عبد القاهر الجرجاني القضية بنظريته في النظم ، فرأى أن المزية لا تستند على مجرد العلم باللغة ، وإنما أيضاً بمواضعاتها ومواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها ، فقال : " ليس الفضل للعلم بأن (الواو) للجمع و (الفاء) للتعقيب بغير تراخ ، و (ثم) له

---

2 ــ ابن جني : الخصائص ٣٠٥/٣ ، تح محمد علي النجار ، ط٣ هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٨م .

3 ــ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص: ١٩٥ ، ط ٤ ــ دار المعرفة : بيروت ١٩٨٢م .

بشرط التراخي .. ؛ ولكن لا يتأتى لك إذا نظمت وألفت أن تحسن التخير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه ثم لا تنظر إلى ذلك لأنه وضع لغوي إذ أين منها مثلاً الفصل وترك العطف والحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحدثها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤم ، والمعنى الذي تقصد[٤] . ، وما هيئة التأليف التي يقصدها الإمام عبد القاهر سوى الظواهر الفنية التي كانت مجرد نظرات شاعت في آراء ونقدات النقاد الأوائل ثم قعدت لبعضها القواعد بين يدي المحدثين وعلماء الأسلوبية الذين فصلوا شكل الهيئة وأجلوا غوامض أبعادها ودرسوها دراسة واعية متأنية دقيقة ، منطلقين في دراستها من ملاحظات الأوائل وإشاراتهم ، سواء أكانوا من المتكلمين أم من البلغاء أم من اللغويين ، أم من الشعراء أنفسهم ، وقد يكون انحرافاً عن الحق أن نقول : إن النحويين كانوا دائماً ينقدون في الأدب صياغته التي لا تخالف السبك العربي ، ناسين جماله ورجاله وعناصره الفنية ، بل كانوا كحماد الراوية ، ولا يغفل عن دور اللغويين الذين كانوا يعدون الشعر صناعة وثقافة ، أو شيئاً قريباً من ذلك .

فهيئة التأليف هي النواة التي ينطلق منها هذا الكتاب وهي القاعدة التي أسس عليها فرضياته ومباحثه التي حاولت جاهداً أن أربط بينها وبين جذورها في النقد العربي مناقشاً ومحللاً ما يطرحه المحدثون وأصول ذلك الطرح ومكانه من النقد العربي القديم وأصله الذي تفرع عنه ، ثم ضاقت مساحة الوقت آنذاك عن النظر في قضية نقدية ماهدة للبحث وذات صلة مباشرة بموضوع هذه الدراسة ، أحاول أن أجمل أبعادها في هذه المقدمة على عجل ، إلى أن تحين لي فرصة للمدارسة المتأنية لها وهذه القضية هي قضية : الشكل والمضمون .

فمن المعروف والمقدر في باب الأدب الجيد أن سبيل اللفظ سبيل التصوير والصياغة ، وسبيل المعنى الذي يعبر عنه هو سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، وقد شبه الإمام عبد القاهر هذه القضية بالذهب والفضة " يصاغ منهما خاتم أو سوار ؛ فمحال إذا أردنا أن نعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن ننظر في مجرد معناه" ؛ وهذا هو القول الفصل في قضية اللفظ والمعنى التي بدأت في النقد العربي بين يدي الجاحظ ، وحسمها الإمام عبد القاهر الجرجاني ؛ فللإمام عبد القاهر رأي معجِبٌ حقاً في هذه القضية ، إذ فصل القول فيها موضحاً أن لا مزية للفظ دون المعنى إنما المزية تحدث بالتقائهما معاً في سبك جيد تقد له الألفاظ على

---

4 ــ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص:١٩٢ ــ ١٩٣ .

قدود المعاني ، وأن يأخذ بعضها برقاب بعض ، فإن الإمام عبد القاهر كون النظـرة الحاسمـة لإشكالية عميقة الجذور في الأدب العربي هي الشكل والمضمون ، إذ ذهبت جماعة من النقـاد إلى تقديم الشكل على المضمون ، وذهب آخرون إلى تقديم المضمون على الشكل ؛ لكن مـن الأدباء من كان عميق النظر ظلمه الدارسون من بعده، إذ قصروا عن فهمه فألحقوه بإحـدى الطائفتين، وهو منهما براء؛ فالجاحظ مثلاً كان من أنصار النظم الجيد الذي يتسق فيه اللفـظ مع المعنى، غير أن عبارته الشهيرة في الحيوان ألبست أمره على من تناوله من بعده من النقـاد، فظنوا أنه ممن ينتصر للفظ على حساب المعنى؛ والحقيقة أن المعاني عنـد الجـاحظ درجـات، وكذلك الألفاظ الدالة عليها، يتناسب كل منها مع درجة الآخـر؛ فالسـخيف للسـخيف والشريف للشريف، فاللغة ليست مستوى واحداً عنده، إذ أن لكل ضرب مـن الحـديث أو المعاني ضرب من اللفظ، فالجاحظ هنا يدعو إلى المواءمة في البناء الشعري حتى تجيء الألفـاظ على درجات المعاني وأقدارها، وبهذا تنتفي عن الجاحظ تهمة تقديمه اللفظ على المعنى في البنـاء الشعري، فيبدو لنا أن أبا عمر الشيباني قد أثار حفيظته عندما هش لبيتين سمعهما في المسـجد لدرجة أنه طلب قرطاساً ودواة ليكتبهما، وفي هذا الوقت كان الجاحظ معه بالمسجد فلم يجـد تحتهما شعراً يحتفى به أو أدباً يحتذى؛ فهو يروي لنا هذه الواقعة التي ألحت علـى نفسـه، في الحيوان، وفي البيان والتبيين، فقال: وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين أن كلف رجلاً حـتى أحضره دواة وقرطاساً فكتبهما، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، وهمـا قوله :

لا تحسبن الوت موت البـلى * إنما المـوت سـؤال الرجال
كـلاهـما مـوت ولكن ذا * أفـظع مـن ذاك لذل السـؤال

ثم قال : وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني والمعاني مطروحـة في الطريـق ، يعرفهـا العجمي والعربي ، والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخـير اللفـظ وسـهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك ، إنما الشعر صياغة ، وضرب مـن النسـج وجنس من التصوير[٥] ، ولكن ما لم يلحظه أحد من الدارسين والباحثين ومن أخذوا عنه ، أن الجاحظ هنا ذكر أموراً كثيرة مهمة في عجز كلامه تكاد تغير ما يقصده في صدره ، فهو يرى

---

5 ــ الجاحظ : الحيوان ٣/٤٠ – ٤١ ، ط ساسي .

أن الشعر كما يقوم على الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، هو كذلك بحاجة إلى صحة الطبع وهو الذوق السليم ؛ وكثرة الماء وهو رواء الشعر ، أو عروق الذهب كما سماها الفرزدق[٦] ، فالجاحظ يقصد بها مكانة الدم من الإنسان ، وذكرها الفرزدق بلازم من لوازمها وهو العروق فكلاهما يبحث في الكلام عن الجسد الظاهر وهو الألفاظ ، وعن الجوهر الذي هو بمثابة الروح للإنسان أو الدم والعروق ، وما التصوير إلا التجسيد الحي للأفكار ، إذ ليس للخبر المجرد من قيمة ، فهو يرد على سبيل الحقيقة ، والحقيقة علم والفن له سبيل آخر غير العلم لتقديم حقائقه ، فهو لا يُعْنَى بتقديم الحقيقة مجردة ، بل أول مهامه إشعار المتلقي بها ، والتصوير له دور رئيس في إعطاء الفن قيمته ، وإسباغ حقيقته عليه ؛ فالملاحظ في كلام الجاحظ أنه كان منفعلاً إذ أثاره الموقف في حد ذاته ، لكنه سرعان ما عاد إلى صوابه في نهاية حديثه عندما فرغ من الكلام عن البيتين ، وتحدث عن الشعر بشكل عام ؛ فقد كان الجاحظ فيلسوفاً متكلماً مجادلاً ، يميل في كتاباته إلى نهج منهج التفكير التقابلي (الثنائيات) فانتقلت ثنائياته من المسائل الفلسفية والدينية إلى المسائل النقدية[٧] ، فجرت على لسانه عبارة اللفظ والمعنى ، وهو في نظرته إلى الشعر لم يكن يمثل هذه النزعة الجافة مطلقاً ، بل بحث عن اللفظ في المواطن التي يحسن فيها ، وعن المعنى في المواطن التي يحسن فيها ، فأتى من أتى بعده فحمل عليه وحمل كلامه ما لا يحتمل ، وكلٌ وجهه لما يخدم فكرته ، ولما كان أهل الكلام والفلاسفة والمتحدثون أميل طبعاً إلى اللفظ دون المعنى فقد أخذوا من كلام الجاحظ ما فهموه منه في حين غفل الأدباء عن استنطاق ما وراء الكلام واستقراء كل ما كتب الجاحظ حول هذا المعنى ؛ وأياً ما كان الأمر فقد ثار من بعد الجاحظ الذي فجر هذه القضية جدل كبير واحتدم نقاش حار حولها ، أدلى الأدباء والنقاد بدلائهم فيه ، ومنهم ابن قتيبة وأبو هلال العسكري وقدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي وابن رشيق الذي حاول القضاء على هذه النزعة ، وجاء لإمام عبد القاهر الجرجاني ليرأب الصدع ويعيد للشعر وحدته بنظرية النظم[٨] .

---

6 ــ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص : ١٩٦ .

7 ــ انظر ؛ د. مصطفى ناصف : نظرية المعنى في النقد العربي ، ص: ٧٩ – ٨٠ ، دار القلم ، القاهرة د.ت .

8 ــ د. محمود المرسي : مفهوم الشعر في النقد العربي ، ص : ٢٢٩ ، دار المعارف ١٩٨٣م .

إن مشكلة اللفظ والمعنى معلقة برقاب أساليب التفكير الفلسفي والعقدي التي سادت القرن الثالث الهجري ، وهي صورة من صور التفكير المنطقي الجامد والنظرة الشكلية للشعر ، ولا يجدر بنا أن نحمل تبعتها على الجاحظ وحده ؛ بل إن المنصف من ذوي الرأي سوف يتجاوز طبقته كلها من الفلاسفة والمتكلمين ، ويضع الأمور في نصابها ، فالعرب في عهدهم هذا كانوا شغوفين بجمع متون اللغة والمعاجم ومشافهة الأعراب وتدوين كل ذلك ، فمن المنطقي أن يقدم اللفظ على المعنى ، فاللفظ هو ما أجهدهم وغربهم في البادية وأبعدهم عن الأهل وقاسوا في سبيله الكثير من المعاناة والآلام ، فيروى عن أبي العباس ابن عم الاصمعي أنه كان يهلع من الغربة في البادية ويشتاق أهله ، فيهمُّ بالرجوع ، ثم يرى عربياً فيتوسل إليه أن يسهل له سبيل الأخذ عن الأعراب فيفعل ، ويصحبه فيسمع قصيدة من أعرابي مطلعها :

لقد طال يا سوداء منك الموعد * ودون الجدا المأمول منك الفرقد

فيقول أبو العباس : قد والله أنسيت أهلي ، وهان علي طول الغربة وشظف العيش سروراً بما سمعت ، وروي عن أبي الملحم أنهأنشد يونس بن حبيب أبياتاً من رجز فكتبها على ذراعه إذ لم يجد صحيفة .. ومثل ذلك كثير يشهد بأنهم عانوا في العلم أشد مما يعاني الجندي في صف القتال[٩] ، وليس لنا هنا أن نحاكم ثقافة لمجرد أن أهلها تصببوا عرقاً بعد جهد جهيد وعمل دائب متصل ، بل نقدر ظروفها الدقيقة في وقت كانت مهددة فيه على المدى غير القريب بالانقراض بعد موت الحفظة والرواة وضيق الحفظ ، ونأخذ الجيد مما خلف لنا هؤلاء ، ونقوم ما أثبتت ضعفه الأيام ، بل حتى هذا الأمر نفسه قد سبقت به هذه الذهنية المعجبة المدهشة ، إذ فطن ابن رشيق إلى حد جامع لمقومات الشعر ، فيقول : الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء ، وهي : اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، فهذا حد الشعر[١٠] ، وهذه رؤية تتسم بالعمق والدقة ويزيدها عمقاً أن وضع القضية برمتها في تصور منطقي يعتمد على الإقناع والمحاجة ؛ فقال : والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية : قراره الطبع ، وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابه الدربة ، وساكنه المعنى ، ولا خير في بيت غير مسكون[١١] ، وقد أخرج

---

9 ــ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٣١٨/٢ ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٨م .

10 ــ ابن رشيق : العمدة ، ١/ ١١٩ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط ، بيروت ١٩٨١م.

11 ــ ابن رشيق : العمدة ، ١ / ١٢١ .

هذا الرأي بصورة أخرى عندما قال : اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم[١٢] .

إن العلاقة الجدلية المتبادلة بين المضمون والشكل تعد من القضايا الحيوية في الفن، بل إنها من القضايا الحيوية في غير الفن أيضاً ، ومنذ عهد آرسطو عندما طرح القضية للمرة الأولى ، بدأ الفلاسفة والفنانون يعبرون عن آرائهم تجاهها[١٣] ، ثم نقلت الحضارات الأخرى عن آرسطو نظرته إلى هذه الجدلية ، وقد شغلت العرب بدءاً من ناقلها الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني الذي ثلم حدها وقلم أظفارها وشذبها ، وحل معضلتها المدمرة ، فهذه المشكلة في صميمها مشكلة أدبية عريقة لها نظائرها في كثير من الآداب وفي كثير من العصور ، وإن كانت قد وضعت في الأدب العربي وضعاً ساذجاً : هي مشكلة الطريقة والمادة أو الصورة والمضمون[١٤] ، وقد اشتدت عناية الأدباء باللفظ والمعنى في القرنين الثالث والرابع من الهجرة ، متأثرة بعاملين أولهما : سلطان الشعر القديم الذي يصطنع من فرض عمود الشعر عتبة له ومدخلاً وهو سلطان اصطنعه النقاد أنفسهم ؛ وثانيهما : ظهور أبي تمام بمذهب جديد في الشعر يقوم على الصنعة والتدقيق في المعاني[١٥] .

واطردت أساليب مناقشة هذه القضية وتشعبت حتى أتى الإمام عبد القاهر فحسمها حسماً قاطعاً ومقنعاً في آن واحد ، وذلك عندما رأى أن القول السليم في هذا المضمار هو التسوية بين اللفظ والمعنى ، فلكل منهما دور ينتقص بانتقاص دور الآخر ، فكلاهما يكمل الآخر ، إذ المزية في الكلام للنظم الذي ينظر فيه إلى اللفظ والمعنى في آن واحد على السواء ، وقد شاعت هذه النظرية شيوعاً كبيراً في الدراسات النقدية العربية ، وانتقلت إلى الدراسات النقدية الغربية فظهر أثرها جلياً في دراساتهم النقدية والجمالية، وممن خاض غمار هذه المسألة عالم الجمال الإيطالي بندتو كروتشيه (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) ، و جورج لو كاتش ، فيرى كروتشيه أن الحقيقة الجمالية في الأدب تتمثل في الصورة الشكل ولا يرجع شيئاً من الجمال

---

12 ــ ابن رشيق : العمدة ، ١ / ١٢٤ .

13 ــ آرنست فيشر : ضرورة الفن ، ص : ١٥٣ ، ط ٢ ، هيئة الكتاب ١٩٨٦م .

14 ــ د. شكري عياد : كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، ص: ٢٤٨ ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م.

15 ــ انظر ؛ د. شكري عياد : كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، ص: ٢٤٨ .

إلى الألفاظ من حيث هي جرس ونطق ، إلا حين تؤدي المعنى ، وأما المضمون فهو يدرك عنده بالحدس Intuition أي بفراسة الأديب وإحساسه وانفعاله بإدراك المعنى على وجه العموم ، فالصورة الجمالية تنجم إذن عن التعبير عما تصوره الأديب بحدسه ، ولا نكاد نجد جديداً في هذا عما كتبه الإمام عبد القاهر[١٦] ، أما جورج لوكاتش فقد أوضح أن المحتوى الكامل للعمل الفني يجب أن يتحول إلى شكل حتى يمكن أن يكون للمضمون الحقيقي فعاليته الجمالية ، فالشكل لدى لوكاتش لا يمثل إلا أقصى حالات التجريد ، وأعلى تكثيف للمضمون ، فالشكل هو الذي يبين لنا النسب الدقيقة بين العناصر المختلفة التي تكون منها العمل الفني ، إذ أن العناصر المهمة تحتل في الشكل مساحة أكبر من العناصر الثانوية ، وعلى ذلك فالشكل الفني هو الصورة النهائية للمضمون ، ويقول لوكاتش بصورة من صور التحول المتبادلة بين الشكل والمضمون ، فكل منهما يميل إلى الآخر ، فالمضمون يحدد الشكل ، والشكل مرتبط بالمضمون[١٧] .

وقد خاضت الفلسفة الجمالية ميدان الصراع حول المسألة المحيرة التي تعالج علاقة الشكل بالموضوع ، أين يبدأ الشكل ؟ وأين ينتهي الموضوع ؟ ؛ بصورة عامة عالج علماء الجمال هذه المسألة في تيارين مختلفين :

أولهما: يقول بإمكان فصل الشكل عن المحتوى، وذلك بافتراض أن هناك بعض الخصائص الشكلية في الشعر يمكن تثمينها لذاتها بشكل مطلق مستقل عن الفكرة من قبيل: أنماط القوافي، ومؤثرات الإيقاع، والنسيج اللفظي، والمفردات والصور الشعرية.

الثاني : وهو التيار الأغلب و الأكثر قبولاً يرى أن في تجربتنا المباشرة مع العمل الفني لا يمكن فصل الشكل عن المادة بصورة واضحة ، فمجمل تجربتنا مع القصيدة لا يقبل التجزئة

---

16 ــ د. عبد الرحمن عثمان : مذاهب النقد وقضاياه ، ص: ١٢٩ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة ١٩٧٥م .

17 ــ د. رمضان بسطاويسي : علم الجمال عند لوكاتش ، ص: ١٢٠ ، هيئة الكتاب ١٩٩١م .

على الرغم من أن بعض العناصر يقع في منطقة الضوء والأخرى في الظل، إلا أنهما الوحدة الكاملة التي لا يخرج الفن إلا في إطارها[١٨] .

فخلاصة الأمر أن مسألة الشكل والمضمون نوقشت على نطاق واسع جغرافياً وتاريخياً ، لكن الإمام عبد القاهر الجرجاني كان أسبق النقاد إلى تحديد إطار جامع يحتضن الفريقين ويصهرهما في بوتقة واحدة تتضام فيها ظلالهما الجمالية المتكاملة ، وذلك عندما دعا صراحة إلى (النظم) الذي هو تضافر بلاغيات الجملة مع نحوها لتأسيس جمالياتها بعيداً عن قيود المدلولات والمفاضلة العقيمة بين اللفظ والمعنى ، والبحث عن أيهما نقدم ، فالنظم لا يشير إلى اللفظ أو المعنى دون صاحبه ، بل يتناول البنية التركيبية للنص الأدبي بشكل عام[١٩] .

وقد استطاع الإمام عبد القاهر بحسمه لهذه المسألة الجوفاء في النقد العربي ، أن يلفت النظر إلى مسألة نقدية أخطر وأعمق ، وأولى بالمدارسة وإعمال الفكر ، هي مسألة الشعرية ، وذلك عندما أشار إلى معنى المعنى الذي هو بمثابة الجانب النفسي للعملية الإبداعية ، والطبيعة النفسية لوظيفة اللغة ، وهي الأمور نفسها التي أثرت في طائفة من النقاد في أوروبا ، وعلى رأسهم ريتشاردز ، الذي أفرد مساحة كبيرة في كتابه مبادئ النقد الأدبي (١٩٢٥م) Principles of Literary Criticism للحديث عن اللغة والمعنى ، مؤكداً على أن الشعر لغة وأن اللغة معنى في شفرة ، ثم اشترك مع أوجدن في كتابهما معنى المعنى The Meaning of meaning[٢٠].

فموضوع العلاقة بين البلاغة وفن الشعر يتأسس على فرض أن كليهما من فنون الصناعة الشعرية في مجال اللغة ، ثم جعلت البلاغة روح الشعر ، وقد شهدت بحوث الشعرية نمواً متزايداً ومطرداً في القرن القريب الماضي ، ترتبت على طبيعة التحولات في نظرية اللغة من ناحية ، مما جعل بعض الباحثين وسم الشعرية الحديثة بأنها لغوية . ثم على تضافر الأفكار

---

18 ــ د. عبد الواحد لؤلؤة : ترجمة / موسوعة المصطلح النقدي ، (مج : ١ / ص : ٢٨٧ ــ ٢٩١) ، بغداد : وزارة الإعلام ، دار الرشيد ، ١٩٨٢م .

19 ــ د. عبد الله الغذامي : الخطيئة والتكفير ، ص : ٥٥ ، ص: ٢٩٩ ، هيئة الكتاب ١٩٨٨م .

20 ــ انظر ، د. عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، ص : ١٩٦ ، عالم المعرفة / ٢٣٢ ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ أبريل ١٩٩٨م .

الجمالية المنبثقة من التجربة الخصبة للمذاهب الأدبية ، والمناهج البحثية الحديثة من ناحية أخرى . وبهذا يبدو سياق الحديث عن الشعرية وعلم الجمال متصلاً وموصولاً لا يكاد ينقطع ، ومن ثم فغن إسهام الشعرية في تشكيل بلاغة الخطاب الأدبي يعد جوهرياً ن كما أن مقولاتها تظل الرصيد الذي يدخره علم النص لشرح خصوصية النصوص الأدبية[٢١] ، ويعد القول بوحدة الشكل والمضمون وامتزاج المادي بالروحي لتأكيد وحدة الأضداد ، من أبرز نتائج الجمالية الرومانسية في إطار نظرية الشعرية[٢٢] .

لقد انجلت غمرة تلك المسألة النقدية التي كادت أن تردي بالأدب إلى مهاوي الجمود والافتعال ، ثم تحولت في النقد العربي إلى نظرية ذات صبغة جمالية تعني بالأضداد النفسية كما تهتم بالمضمون ، المعرفي للبنية التي يجب أم تكون ألفاظها كآجر البناء وأن يأخذ بعضها برقاب بعض كما قال الإمام الجرجاني ، ثم تطورت هذه النظرة إلى أن تناقلها الغرب ودعمتها النظريات الجمالية الحديثة ، وتكاتف عمل الجماليين والأدباء والبنيويين ، فنجم عن ذلك عدد من المظاهر الجمالية التي اعتنى بها الشعراء وطوروها في قصائدهم ، منها ما هو منوط باللفظ ، ومنها ما هو منوط بالمعنى ، لكن في تناغم يهدف إلى إيجاد نظرة شاملة للقصيدة في محاولة إنتاج مثالي لهذا النوع،ومن هنا كانت دراستنا المعنونة بـ(ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث) التي هي الآن بين أيدي قرائنا الكرام في طبعتها الثانية ، آملاً أن يجد القارئ الكريم من ورائها نفعاً كان هو الهدف الرئيس الذي أرجوه من وراء إخراج هذه الدراسة في طبعتها الحالية .

والله ولي التوفيق

ساحل طهطا في / ٣ من أبريل ٢٠٠٠م

---

21 ــ أنظر ، د. صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص : ٥٣ ، عالم المعرفة / ١٦٤ ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، أغسطس ١٩٩٢م .

22 ــ السابق ، ص : ٥٤ .

بيانات اتصالية : **********

المؤلف : علاء الدين رمضان

العنوان البريدي : ١ شارع مرسي بالجيارين

ساحل طهطا ٨٢٦٢٣

سوهاج – جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني : alauddineg@yahoo.com

الموقع عبر الإنترنت : www.come.to/alauddin

الهاتف : 093760083 / 093773983 /

غـــابة الدنـــدنـــة

http://www.come.to/alauddin